إيران.. وأكذوبة «محور المقاومة»

نجح النظام الإيراني من خلال عمل جاد ودؤوب، على مدار ٤٠ عامًا هي عمر «الثورة الإسلامية»، في إيجاد عمق استراتيجي واسع لمشروعه التوسعي في المنطقة العربية، تحت مُسمى «محور المقاومة»، يمتد عبر طيف «جيوسياسي» واسع، من طهران إلى لبنان وفلسطين، مرورًا ببغداد ودمشق، وصولًا إلى صنعاء. ويجسد هذا المحور تصورات إيران لدورها الإقليمي، وآليات تعظيم نفوذها في المنطقة، بما يحقق مصالحها العليا، ويضمن لها إحكام السيطرة على مقدرات الأمة العربية.

وكان الهدف المعلن من «محور المقاومة» المزعوم، هو استقطاب كل نظام أو منظمة أو جماعة أو طائفة، تقف إلى جنب إيران في مواجهة الهيمنة الأمريكية على المنطقة، ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، وعلى رأسها «حزب الله» اللبناني، وبعض فصائل المقاومة الإسلامية في فلسطين، وجماعة «الحوثي» اليمنية، ومليشيات «الحشد الشعبي» في العراق، والنظام الديكتاتوري الحاكم في سوريا.

أمّا الهدف الحقيقي من ذلك المحور، فهو إنشاء «هلال شيعي» لتطويق المنطقة العربية، والعبث بأمنها القومي، وإيجاد الظروف السياسية المواتية لـ «تصدير الثورة» الإيرانية إلى بلدان المنطقة، بحيث يصبح نظام الملالي هو المثال الأعلى لحكم الدول العربية، وتصير «ولاية الفقيه» هي الأسلوب الأمثل لإدارة شؤون الشعوب، وبالتالي تعود إيران «إمبراطورية فارسية» كما كانت في غابر الزمان!

وفي غيبة أي مشروع عربي لمواجهة هذا المحور الكاذب، أعادت طهران «إنتاج الهوية الشيعية» في العراق ولبنان واليمن، على أسس أيديولوجية؛ ودعمت النظام العلوي السوري برئاسة بشار الأسد، فنجحت في اختلاق هويات طائفية تسعى من تلقاء نفسها نحو تعزيز نفوذ إيران «الجيوسياسي» في منطقة الشرق الأوسط.

وفي هذا الملف، نكشف عن الوجه القبيح لـ «محور المقاومة» باعتباره مجرد أكذوبة إيرانية، الهدف منها هو خدمة مشاريع الملالي ومخططاتهم التوسعية المستمرة، وليس «مقاومة» أي مشاريع أخرى، سواء أمريكية أو صهيونية في المنطقة. وهو ما يؤكد أن طهران تكذب وتتجمل، لإسباغ مُثل سياسية عليا على مشاريعها العدوانية، فمن اليمن إلى العراق ومن سوريا إلى لبنان، يُخيّم كابوس «محور المقاومة» على هذه البلدان، فيحيل أهلها قرابين فداء، قتلًا وتغييبًا وتعذيبًا واعتقالات، من أجل أن يستمر المشروع الإمبراطوري الإيراني على قيد الحياة.

رصد ومتابعة علمية

د. سعيد الصباغ
أستاذ الدراسات الإيرانية المعاصرة بكلية الآداب جامعة عين شمس،
ورئيس وحدة الدراسات الإيرانية بمركز بحوث الشرق الأوسط

شريف عبدالحميد
رئيس مركز الخليج للدراسات الإيرانية
رئيس تحرير شؤون إيرانية

«محور المقاومة».. إيقاظ الفتنة النائمة (1)

■■ أيقظ نظام الملالي «الفتنة النائمة» بين عموم المسلمين، عندما عمد بعد قيام ثورة 1979 إلى إحياء مفاهيم الصراع التاريخي على «مركزية السلطة» والدعوة إلى الثأر ممن اغتصب «حق الأئمة» في الولاية على المسلمين، فأعاد المنطقة برمتها إلى الوراء، وتحديداً إلى حقبة «الفتنة الكبرى» التي كان من المفترض أن تسكن كتب التاريخ!

وهكذا، اعتمدت إيران يوما بعد يوم تحت حكم الملالي، على توظيف الجماهير في بناء وتعزيز «محور المقاومة الإسلامية»؛ من أجل تحقيق الغاية الاستراتيجية منه، ألا وهي أن تصير إيران «قطبا إقليميا» لا تنازعه قوة سياسية، ولا تنافسه طاقة روحية.

وفي هذا الصدد، استحدثت إيران مقاربة أيديولوجية لمنطقة الشرق الأوسط، استندت فيها إلى كل مكونات قدراتها الجيوسياسية، وقيمها الثورية، واصطحبت معها مفاهيم الصراع التاريخي على مركزية السلطة، والثأر ممن اغتصب «حق الأئمة» في الولاية على المسلمين.

اختلاق هويات طائفية

أفضت هذه المقاربة الاستراتيجية، إلى نجاح إيران في خلق عمق استراتيجي لها بمنطقة الشرق الأوسط؛ أعادت فيه «انتاج الهوية» في كل من العراق ولبنان واليمن على أسس أيديولوجية؛ أو اختلاق هويات طائفية تسعى من تلقاء ذاتها نحو تعزيز نفوذ إيران الجيوسياسي بالمنطقة تحت ما يسمى «محور المقاومة الإسلامية».

وما كان لهذه المقاربة أن تحقق أهدافها المنشودة إلا لأنها انتهجت مسارين متكاملين في هذا الشأن، مسار اعتمدت فيه على الاستثمار الأمثل لـ «قواها الناعمة» في تكوين قاعدة جماهيرية متماسكة ومؤهلة لاستقبال قيم الثورة الإسلامية بل ومؤمنة بأهدافها أيضا.

ويعود الفضل في تحقيق هذه الغاية الاستراتيجية إلى نجاح الأجهزة الإيرانية، فيما يلي:

أولا: تبني خطاب جماهيري من شأنه ترسيخ الصورة الذهنية للنظام الإيراني بوصفه نظام معاد لإسرائيل، ومجابه للهيمنة الأمريكية؛ لن تسمح بخضوع إيران أو إذعانها لهذين البلدين، خاصة أن هذه الهيمنة كانت سببا لإصابتها بوهن استراتيجي قبل الثورة.

ثانيا: تحديد الأهداف وترتيب الأولويات؛ بهدف تعظيم مردود المصالح الإيرانية العليا، وتوطيد مرتكزات نفوذها الإقليمي، مع ضمان أمنه وسلامته. فضلا عن تعزيز مكانتها الروحية التي تكسبها حق الدفاع عن حقوق جميع المسلمين (وفق المادة 153 من الدستور) ودعم النضال المشروع للمستضعفين ضد المستكبرين في أية نقطة من العالم (وفق المادة 154).

ثالثا: الإبقاء على أي صراع محتمل نشوبه في جوارها العربي، خارج أراضيها، منعا لتكرار تجربة حرب الثماني سنوات مع العراق (1980 ـ 1988م) وذلك من خلال تقديم الدعم والمساندة للأقليات والطوائف الشيعية بالمنطقة، وتحويل بعضها إلى ظهير جماهيري مساند لمواقفها السياسية، وبعضها الآخر إلى ظهير مسلح دأبه إبقاء ميزان القوى في صالح طهران على الدوام.

الملالي أيقظوا «الفتنة النائمة» بين المسلمين عندما عمدوا إلى إحياء مفاهيم الصراع التاريخي على مركزية السلطة

وهكذا، نجحت إيران في إيجاد عمق استراتيجي واسع، يمتد من طهران إلى لبنان وفلسطين مرورا ببغداد ودمشق، ثم اليمن مؤخرا. وهو العمق الذي سبق أن نبه إليه مبكرا العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني بن الحسين، في حديث له مع صحيفة واشنطن بوست، عام 2004م، محذرا فيه مما أسماه في ذلك الوقت بـ «الهلال الشيعي». وهو المسمى الذي احتوى في جوهره توصيفا أيديولوجيا واعيا، كشف فيه مدى إدراك هذا الملك العربي لخطورة التوجهات الإيرانية؛ من كونها «سوف تؤثر على مستقبل الاستقرار الإقليمي، نظرا لأنها تحمل في طياتها إدخال تغيرات واضحة على خريطة المصالح السياسية والاقتصادية لبعض دول المنطقة»

وعلى الرغم من تحذير الملك «عبد الله» المشار إليه؛ إلا أن إيران نجحت، بفعل جملة من العوامل التي سيتم التطرق إليها لاحقا، في تحويل أبناء بعض الطوائف الشيعية بالمنطقة، من مجرد مؤيدين لمواقفها السياسية، إلى عناصر منضوية تحت ألوية المليشيات والفصائل والجماعات المسلحة التي كونها الحرس الثوري؛ لتخوض المعارك نيابة عن إيران، وطاعة لوليها الفقيه، تحت مظلة واسعة تسمى محور المقاومة الإسلامية، كما سبق الإشارة سلفا. ولعل هذا ما يمثل في حد ذاته أحد مبررات القيام بهذه الدراسة، ويعزز من أهميتها.

ويجسد «محور المقاومة الإسلامية» تصورات إيران الاستراتيجية لدورها الإقليمي وآليات تعظيم نفوذها داخل منطقة الشرق الأوسط، ولاتجاهات حركتها نحو بناء عمق استراتيجي يحقق لها مصالحها العليا.

حدود «العمق الاستراتيجي»

لعلنا نرى ضرورة لأن نعرّف بمفهوم «العمق الاستراتيجي» بشكل موجز، قبل أن نعرج إلى معالجة محور المقاومة الإسلامية على مستوى المفهوم وعوامل النشأة، وذلك على النحو التالي:

تشير التعريفات التقليدية لمفهوم «العمق الاستراتيجي» إلى نجاح دولة ما في استخدام ما تمتلكه من أدوات سياسية ودبلوماسية، وميزات جغرافية، وكتلة حيوية، ومعتقدات وقيم تاريخية وثقافية، إلى جانب قدراتها الدفاعية، سواء الفعلية أو المحتملة، في الدفاع عن نفسها ضد الدول المعادية لها.

كما يُعرف العمق الاستراتيجي في الأدبيات العسكرية، بالمسافة الفاصلة بين خطوط المواجهة العسكرية، وبين المناطق الرئيسية بقلب الدولة المعادية. وبناء عليه، فإن الدولة التي تنجح في خلق عمق استراتيجي لها داخل بلد آخر، سوف تحقق لنفسها التفوق في أي مواجهة محتملة بينهما، بعيدا عن خطوط المواجهة العسكرية مع هذا البلد.

وعادة ما يتضمن العمق الاستراتيجي أيضا بعدا آخر، يتمثل فيما يمكن أن يطلق عليه العمق التفاعلي الاستراتيجي الذي يمكن الدولة من الاستخدام الأمثل لقوتها الناعمة لتحقيق نفوذها الإقليمي، أو لتعزيز علاقات التفاهم المتبادل بينها وبين دول الجوار. وبهذا المعنى يتضح لنا أن العمق الاستراتيجي يتمتع أيضا بدرجة تأثير روحي واسع، يمكن أن نطلق عليه العمق الاستراتيجي الثقافي. وهذا هو الذي وفر لإيران فرصا مواتية لأن تتمتع بعمق ثقافي وروحي ملموس في العراق وسوريا ولبنان واليمن، أدارت من خلاله عمليات التفاعل الثقافي والسياسي وحتى الاقتصادي داخل هذه الدول، ومن ثم الأخذ بزمام المبادرة لتحقيق مصالحها الخاصة حتى ولو حساب سلامة هذه الدول ووحدة أراضيها.

مفهوم «محور المقاومة»

بما أن محور المقاومة الإسلامية يمثل تجسيدا لمقاربة إيران الأيديولوجية لمنطقة الشرق الأوسط، فإن مفهومه ينصرف، وفق التصورات الإيرانية، على كل نظام أو منظمة أو جماعة أو طائفة تقف إلى جنب إيران في رفض الهيمنة الأمريكية على المنطقة، ومقاومة الاحتلال الإسرائيل للأراضي العربية. مثل «حزب الله» اللبناني، وبعض فصائل المقاومة الإسلامية بفلسطين، وأنصار الله باليمن، ومليشيات الحشد الشعبي بالعراق، والطائفة الشيعية بسوريا والبحرين.

وعلى الرغم من أن مصطلح محور المقاومة الإسلامية يبدو كما لو كان ابتكارا إيرانيا؛ نظرا لكثرة استخدام أجهزة الدعاية الإيرانية له، إلا أن الباحث الإيراني «محمدى سيرت» ذكر أن جريدة «الزحف الأخضر» الليبية هي أول من استخدمه، في 1/29/ 2002، ضمن مقال لها بعنوان: «محور الشر أم محور المقاومة»؛ ردا منها على الكلمة التي كان قد ألقاها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، وصف فيها كل من إيران والعراق وكوريا الشمالية بأنها «محور الشر» بالعالم؛ وأن أنظمتها تدعم الإرهاب وتسعى لامتلاك أسلحة دمار شامل. منوهة أيضا إلى أن «القاسم المشترك الوحيد الذي يجمع بين هذه الدول الثلاث هو مجابهة الهيمنة الأمريكية».

ومن ساعتها، أصبح مصطلح «محور المقاومة» واحدا من أوسع المصطلحات استخداما في الأدبيات السياسية الإيرانية، فاستخدمته مثلا جريدة «جمهوري إسلامي» أثناء معالجتها لانتفاضة الشيعة بجنوب العراق (مارس 1991م)، كما استخدمه «علي أكبر ولايتي» مستشار المرشد الأعلى للثورة الإسلامية ووزير الخارجية الأسبق، في أغسطس 2010م، ضمن تصريح قال فيه: إن سلسلة (محور) المقاومة ضد إسرائيل تضم إيران وسوريا وحزب الله والحكومة العراقية الجديدة وحماس، وتتمتع فيها سوريا بدور ذهبي. واستخدمه أيضا «سعيد جليلي» الأمين العام السابق للمجلس الأعلى للأمن القومي، خلال محادثاته مع الرئيس بشار الأسد، في أغسطس 2012م، عندما قال: «إن ما يحدث في سوريا ليس شأنا داخليا، بل هو معركة بين محور المقاومة وأعدائه بالمنطقة والعالم؛ ولذلك لن تتسامح إيران تجاه أي تحرك مناوئ لهذا المحور».

«محور المقاومة».. ركيزة العمق الإيراني (2)

■■ نجحت إيران، كما بيّنت الحلقة الأولى من هذه الدراسة، في خلق عمق استراتيجي لها بمنطقة الشرق الأوسط؛ أعادت فيه «انتاج الهوية» في كل من العراق ولبنان واليمن، على أسس أيديولوجية؛ ونجحت في اختلاق هويات طائفية تسعى من تلقاء ذاتها نحو تعزيز نفوذ إيران الجيوسياسي بالمنطقة، تحت ما يُسمى «محور المقاومة الإسلامية».

وأرجع الباحث الإيراني «چوبين جودرزي» تاريخ نشأة «محور المقاومة» إلى عام 1979م، استنادا إلى أن سوريا كانت هي الركيزة الأولى التي قام عليها هذا المحور؛ نظرا أنها كانت الدولة العربية الأولى التي تعترف بالثورة الإسلامية، وأول من أقامت معها تحالفا استراتيجيا، عدته إيران نموذجًا للتوازن الصعب مع نظام صدام حسين وإسرائيل والولايات المتحدة، في ظل التغير المستمر في نمط التفاعلات الإقليمية. وأن التحالف بين دمشق وطهران لا يزال قائما حتى اليوم؛ لأنهما اجتمعا على وحدة الأهداف والمصالح المشتركة، وتطابق الرؤى السياسية إلى حد كبير حيال معظم القضايا الإقليمية.

غير أن الحقائق العلمية تشير إلى أن نشأة «محور المقاومة» وتطوره تعود إلى محصلة عدد من العوامل، منها: البيئة الإقليمية المواتية التي كانت تشهد ضعفا في بنيتها التقليدية، وتغيرا في ميزان القوى الدولي، والمساعي الأمريكية الرامية للانفراد بالهيمنة على المنطقة، فضلا عما كانت تشهده مصالح القوى الفاعلة من تقاطع واضح. وهذا ما سوف نتناوله على النحو التالي:

أولا: البيئة المواتية:

كانت الخصائص والسمات العامة التي سادت البيئة الإقليمية من بين أهم العوامل التي أسهمت في نشأة محور المقاومة وتطوره؛ نظرا لما تميزت به من ضعف في بنيتها التقليدية، وتغير في ميزان القوى. أما فيما يتعلق بضعف البنية الإقليمية؛ فإنه نجم بدوره عن:

- استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، وتحول القضية الفلسطينية منطلقا لزيادة الانقسام بين الدول العربية.

- بقاء القضية الكردية دون حل، حتى أصبحت نموذجا للانقسام العرقي الذي طالما يمثل تهديدا لسلامة الأراضي الإيرانية والتركية والعراقية والسورية. خاصة أن الأكراد لا يزالون مصرين على نيل الحكم الذاتي، أو قيام كردستان الكبرى.

- قيام الثورة الإسلامية بإيران، بوصفها نموذجا مؤثرا في تصاعد الاتجاهات الراديكالية المتطرفة بمنطقة الشرق الأوسط.

- تزايد أطماع إيران الإقليمية، وعدوانية توجهاتها في ظل إيمان نظامها الحالي بعالمية الثورة ووجوب تصديرها إلى الخارج.

- تدهور العلاقات البينية العربية من ناحية، وتدهور علاقات معظم الدول العربية مع إيران، من ناحية أخرى.

- تقادم البنية العربية وعدم قدرتها على تلبية تطلعات شعوبها، وتقلص قدرة العواصم الثلاث الأكثر ديناميكية في العالم العربي (القاهرة ودمشق وبغداد) على القيام بدورها المعتاد على المستوى الجيوستراتيجي؛ بعد أن حطم الصراع الطائفي بغداد، منذ انهيار نظام صدام حسين، 2003م، وبعد أن دمرت الحرب الداخلة دمشق، منذ

استمرار الاحتلال الإسرائيلي وزيادة الانقسام العربي حول مستقبل القضية الفلسطينية.. أحد عوامل ظهور «محور المقاومة»

2011م، وانكفأت القاهرة على شواغلها الداخلية منذ ذلك التاريخ أيضا.

وفي حين كان ميزان القوى الإقليمي يميل لصالح إيران وتركيا وإسرائيل، ومعهم السعودية والإمارات وقطر؛ التي أخذت تشهد نموا اقتصاديا كبيرا، أفضي بدوره إلى أن يتحولوا إلى فاعلين إقليميين مؤثرين. إذ أخذت إيران، على الرغم من المشاكل الهائلة التي تواجهها داخليا وخارجيا، تستحوذ على دور إقليمي مؤثر، حتى باتت قراراتها تؤثر على الأحداث في جميع أنحاء المنطقة، وتلعب غالبا دور الخصم الرئيسي للولايات المتحدة، والقوة المهددة لأمن إسرائيل، التي ظلت هي الأخرى مستقرة وتشهد نمواً اقتصادياً هائلاً، وتسعى لبناء تحالفات متنامية مع الدول العربية. أما تركيا، فقد اتجهت أكثر، في عهد الرئيس رجب طيب أردوغان، نحو الشرق الأوسط والانخراط في قضاياه والتورط في صراعاته.

أما على الجانب الآخر، فقد ظلت السعودية الدولة العربية الوحيدة التي تنتمي، وفق الإرادة الأمريكية، إلى أعلى مستوى في البنية الجيوسياسية في المنطقة العربية. بينما أصبحت أبو ظبي تقوم بالدور الذي كانت تلعبه قطر من قبل، فلديها نفوذ كبير وتسيطر على الكثير من الموانئ في القرن الإفريقي، كما أنها تسيطر على مناطق باليمن أكثر من أي بلد آخر، ولديها علاقة عدائية مع إيران. أما قطر، فقد أخذت تلعب دوراً دبلوماسياً كبيرا مقارنة بوزنها الفعلي بالمنطقة، ولا تزال مستمرة في لعب هذا الدور، ولكن بدرجة أقل. فلا تزال تتوسط في العديد من البلدان، بما في ذلك غزة وتركيا والولايات المتحدة، وأماكن أخرى في المنطقة.

وكان من الطبيعي أن يكون لدى كل من هذه القوى الإقليمية الفاعلة أهدافا استراتيجية خاصة، فمثلا تسعى إيران والمملكة العربية السعودية لتحقيق التوازن بينهما. في حين تسعى إسرائيل إلى مواجهة طموحات إيران النووية ونفوذها الإقليمي، وتشارك في إدارة الصراع بدلاً من حل النزاع مع الفلسطينيين، وهنا تشترك مع المملكة العربية السعودية في هدف استراتيجي واحد، يتمثل في احتواء إيران. بينما أدى الانشقاق في مجلس التعاون الخليجي إلى تقوية الروابط بين تركيا وقطر من ناحية، وتوثيق علاقات قطر مع إيران، من ناحية أخرى.

ثانيا: الاستحواذ الأمريكي على المنطقة:

مثلت مساعي الولايات المتحدة للانفراد بقطبية العالم؛ عقب انهيار الاتحاد السوفييتي، وفرض نظام عالمي جديد، بيئة مواتية لنشأة محور المقاومة. خاصة أنها عمدت إلى دفع منطقة الشرق الأوسط نحو عدم الاستقرار والتفكك، ضمن مساعيها لإعادة هيكلته على النحو الذي يمنع ظهور منافس جديد قد يمثل تهديدا لمصالحها، على غرار التهديد الذي كان يشكله الاتحاد السوفييتي لها في السابق. ويراعي في ذات الوقت مصالح حلفائها، للحد الذي يضمن عدم قيام أي حليف منهم بعرقلة انفرادها بقيادة العالم. فضلا عن امتلاك آلية لردع المنافسين المحتملين للاضطلاع بدور إقليمي أو عالمي غير مسيطر عليه.

وفي هذا الإطار، شهدت المنطقة ثلاثة متغيرات حادة شكلت في حد ذاتها عوامل دفع لتنامي دور محور المقاومة، بوصفه أداة تعزيز فعالة لتعميق نفوذ إيران الإقليمي، هي:

- غزو القوات الأمريكية والبريطانية للعراق، في مارس 2003م؛ بزعم امتلاكه أسلحة دمار شامل، وقيامها بتدمير بنية النظام العراقي بالكامل، وتفكيك مؤسساته العسكرية والأمنية والقضائية، وتقويض مؤسساته الإنتاجية. كما فرضت عملية سياسية كان من شأنها إنهاء روابط الوطنية والانتماء لدى أبناء العراق الواحد، واستبدلته بانتماء طائفي ذي امتداد خارجي؛ وبالتالي تحويل العراق إلى مجرد تابع إقليمي، تديره طبقة سياسية مدعومة من الاحتلال الأمريكي وموالية للنظام الإيراني. وهو الأمر الذي مثل بدوره بيئة خصبة لظهور الميليشيات المتناحرة، ومن ثم طرح فكرة تقسيم العراق إلى ثلاث دول في إطار خطة أمريكية لإعادة ترسيم خريطة للشرق الأوسط.

- «الفوضى الخلاقة» أو ما يعرف بأحداث الربيع العربي، عام2011م، التي أدت إلى انتشار فوضى جيوسياسية هائلة بالمنطقة، بدأت بالإطاحة بالرئيسين التونسي زين العابدين بن علي، يوم 11 يناير، والمصري حسني مبارك، يوم 11 فبراير، ثم تدمير النظام الليبي وقتل الرئيس القذافي 20 أكتوبر، وتفكيك قواته المسلحة ونهب مخازن أسلحته وتوزيعها على جميع أنحاء المنطقة، وانتهت بتحويل ليبيا إلى مركز لاستقطاب الجماعات الإرهابية على غرار ما حدث للعراق.

وقد عزز هذا التدهور الإقليمي السريع الرغبة لدى جميع القوى الفاعلة في استمرار الصراع الدموي باليمن، على الرغم من تنازل الرئيس علي عبد لله صالح عن الحكم، يوم 27 فبراير 2012م، فضلا عن مواصلة هذه القوى دعم عمليات تدمير النظام السوري.

وبعبارة موجزة، أدى غزو الولايات المتحدة للعراق ووقوع أحداث الربيع العربي، فضلا عن تخلي واشنطن عن قيادة عملية السلام بالشرق الأوسط إلى بروز نمطين من التحولات النوعية، تمثل الأول في الانهيار الأوسع للنظام الإقليمي وتكثيف عمليات العنف والإرهاب في المنطقة. بينما تمثل الثاني في فرض القوى الفاعلة الأخرى نفسها على عملية صنع القرار الإقليمي. ومع تلاقي هذين الديناميكيين تبلور الهيكل الجيوسياسي الجديد لمنطقة الشرق الأوسط، الذي نشأ فيه محور المقاومة وتطور.

ثالثا: تقاطع مصالح القوى الفاعلة:

مثلّت الأزمة السورية نقطه التصادم الأعنف بين مصالح القوى الفاعلة بالمنطقة؛ فمن ناحية تمثل سوريا الحليف الاستراتيجي الوحيد بالنسبة لروسيا، التي تسعى إلى كسب النفوذ على حساب الولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة لإيران. وبالتالي فإن انهيار النظام السوري كان يعني انحسار نفوذهما من المنطقة بالتبعية، كما سبق الإشارة.

ومن ناحية أخرى، كان تحالف سوريا مع كل من روسيا وإيران في حد ذاته من بين العوامل التي كانت

«المحور» نشأ بسبب تقلص قدرة «القاهرة ودمشق وبغداد» على القيام بدورها المعتاد على المستوى الجيوستراتيجي

تمثل أحد أسباب إصرار واشنطن وحلفائها على رحيل الرئيس بشار الأسد، منذ نشوب الاحتجاجات ضده، في مارس 2011م، حتى أن وزيرة الخارجية الأمريكية «هيلاري كلينتون» صرحت يوم 6 ديسمبر 2011م، بقولها إن هدف بلادها هو القضاء على نفوذ إيران في سوريا، وأنها إذا تمكنت من ذلك، فسيكون إنجازًا كبيرًا. ومن ثم فإن الولايات المتحدة قدمت ـ بمساعدة تركيا وبعض دول الخليج ـ الكثير من المساعدات المالية والأسلحة والتدريب للفصائل والجماعات السلفية والإخوان المسلمين و«داعش وجبهة النصرة والقاعدة» وغيرها بالعراق وسوريا.

وسوريا كان يمثل في حد ذاته مصلحة مهمة لإسرائيل وتركيا، وبالتالي كان من الطبيعي أن تعملان على تدمير النظام السوري، وإلحاق كارثة بها، كالتي لحقت بالعراق. لأن انهيار سوريا سيوفر لإسرائيل فرصة تاريخية لكسر شوكة حزب الله اللبناني، ومن ثم ضم مرتفعات الجولان المحتلة. كما سيوفر لتركيا ـ في ذات الوقت ـ فرصة لاقتطاع أجزاء من شمال سوريا.

ومن جهة ثانية، وقفت المصالح الروسية وراء خوض موسكو المعارك ضد المعارضة السورية، وتقديم الدعم الكامل لنظام بشار الأسد، خاصة لاستدراج الإرهابيين من منطقة الشيشان، انطلاقا من أنهم إذا لم يتم قتلهم بسوريا، فسيتعين عليها قتالهم داخل روسيا. كذلك الأمر، بالنسبة للمصالح الإيرانية التي دفعت طهران لتقديم الدعم الكامل للأسد، على الرغم مما تعانيه من وطأة العقوبات الاقتصادية؛ نظرا لأن سورية تمثل لها ركنا جيوسياسيا مهما بمحور المقاومة ضد إسرائيل، كما تمثل جسرا بريا يربط بين العراق ولبنان، حيث «حزب الله» الركن الثاني بهذا المحور. فضلا عن أن طهران تعتقد أيضا أنها إذا لم تقاتل الجماعات الإرهابية في العراق وسوريا، فسيتعين عليها قتالهم داخل حدودها.

الجدير بالذكر، أن تدمير جيوش العراق وليبيا أن الأزمة السورية كانت تمثل فرصة مواتية

أعضاء «محور المقاومة».. أذرع وعملاء وخونة (3)

■■ اقتضت مقاربة إيران الأيديولوجية لخلق عمق استراتيجي لها في منطقة الشرق الأوسط، أن تقوم بتشكيل قوس جغرافي مترابط، بطول 1235,8 كم، يمتد من منفذ «مهران» الحدودي مع العراق إلى بيروت على ساحل البحر المتوسط. وبإجمالي مساحة تبلغ 1,551,852كم،ويضم العراق (437,072كم) وسوريا (185,180كم) وجنوب لبنان (929,6كم) على أن يضم هذا العمق الاستراتيجي، إلى جانب سوريا وحزب الله، تحالف طائفي مسلح قادر على خوض الصراع العابر للحدود تحقيقا للمصالح المشتركة وتوفيرا للحماية المتبادلة. وهو الأمر الذي نجحت إيران في تنفيذه فعليا.

ولذلك، عندما تعرض نظام الرئيس الأسد، أهم ركائز محور المقاومة، لخطر الإطاحة به؛ تدخل «الحرس الثوري وحزب الله» بثقلهما العسكري، لمساندة الجيش السوري، حتى تمكن من هزيمة قوات المعارضة وتنظيم داعش في معظم النقاط المهمة. وهو الأمر عزز موقف إيران الإقليمي أمام الولايات المتحدة وإسرائيل.

ولم يكن العراق بعيدا عن الصراع الدائر بسوريا؛ إذ كان بمثابة جسر إيراني لنقل مقاتلي فيلق القدس والمليشيات العراقية والأفغانية والباكستانية إلى الأراضي السورية لمساندة الجيش السوري من ناحية. ولمواجهة التهديد الاستراتيجي الذي كان يمثله قيام داعش كدولة سلفية جهادية متاخمة لحدودها مع العراق، منذ عام 2014م، من ناحية أخرى. فضلا عن أن إيران قدمت أوجه الدعم والمساندة المختلفة لجماعة «أنصار الله» الحوثية، وهو الأمر الذي مكنها من تعزيز مواقعها بالمناطق المتاخمة للحدود السعودية، بل واتخاذها منطلقا لشن هجمات برية وصاروخية على الأراضي والمنشآت الحيوية السعودية.

حزب الله اللبناني

أشهر من ارتبط، من حيث التأسيس والمبادئ والأهداف، بالاستراتيجية الإيرانية في بُعدها العربي، وتحديداً في منطقتي شرق البحر المتوسط والخليج العربي. وقد اكتسب حزب الله شرعيته المحلية وشعبيته الإقليمية عن طريق مقاومة الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982م، لا سيما بعد تأسيسه عام 1985م، إذ جاء في بيان التأسيس أنه «ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه، وتتجسد في آية الله الموسوي الخميني مفجر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة».

ويرى المتابعون لشؤون هذا الحزب أن ارتباطه بإيران انطلق من مفردات طائفية، إذ إن كل عناصره هم من اللبنانيين الشيعة، الذين يتخذون «الولي الفقيه» في إيران مرجعا دينيا وسياسيا لهم. فضلا عن أنه يتلقى دعما ماديا كاملا منها، إضافة إلى التبرعات وأموال الخمس التي يتلقاها من أنصاره. وقد وظف حزب الله قدراته بوصفة تنظيم «مقاومة» في ترسيخ نفوذ المكون الشيعي بالدولة اللبنانية، وتعزيز نفوذ إيران الإقليمي. وهو ما تنتهجه المليشيات الأخرى التي تم استنساخها بالعراق واليمن وسوريا،

الحشد الشعبي

عبارة عن غطاء قانوني عام تنضوي تحته الفصائل الشيعية المسلحة التي زاد عددها مؤخرا عن 67 فصيلا. تأسس، في يونيو 2014م، لمواجهة تنظيم داعش، واكتسبت أهمية متزايدة بفضل الانتصارات التي حققها عليه، حتى بات جزء من المنظومة الأمنية العراقية، بعد هيكلته وتحويله

«الحرس الثوري وحزب الله» تدخلا بكل ثقلهما العسكري عندما تعرّض نظام بشار الأسد لخطر الإطاحة به

إلى تشكيل عسكري يضاهي جهاز مكافحة الإرهاب في يوليو 2015م، ويتمتع الهيكل التنظيمي للحشد بالمرونة واللامركزية معا، من حيث أن لكل فصيل فيه قيادته العسكرية ومرجعيته الدينية الخاصة، إذ يقلد ثلثيه المرجعيات الإيرانية وعلى رأسها آية الله خامنئي، بينما يقلد ثلثه الآخر المرجعيات العراقية، وعلى رأسهم آية الله السيستاني.

كما أن لكل فصيل أيضا منطقة عمله ونطاق عملياته، والتي يتمركز معظمها ببغداد وسامراء وكربلاء وصلاح الدين والأنبار وديالى والنخيب. بينما تقاتل بقيتها في سوريا دعما لنظام بشار الأسد، مثل جيش المختار، ولواء أبو فضل العباس، وحركة حزب الله النجباء، وعصائب أهل الحق، وفيلق بدر، وفيلق الوعد الصادق، ولواء أسد الله الغالب ويدير الحشد الشعبي مجلس شورى المقاومة الإسلامية، برئاسة جمال جعفر الإبراهيم المكنى حركيا بـ أبو مهدي المهندس (اغتيل برفقة قاسم سليماني، يناير 2020م) وهادي العامري. ويتألف هذا المجلس من بعض قادة الفصائل المهمة، ويختص بإصدار قرارات التدريب والتسليح غيرها دون الرجوع إلى رئيس الوزراء العراقي. وعلى الرغم من أن الحشد يتكون من 67 فصيلاً مسلحاً إلا أن 80٪ من جهده العسكري يقع على عاتق سرايا السلام، وفيلق بدر، وكتائب حزب الله العراقي، وعصائب أهل الحق

حزب الله العراق

إحدى الميليشيات التي تعد تجسيدا مثاليا للعمالة المخلصة لإيران، وأكثرها مرونة في الحركة لإلحاق أقصى الضرر بالخصم. تأسس عام 2003م، باسم أنصار الله الأوفياء، على يد حيدر الغراوي بالتعاون مع سرايا السلام التابعة لمقتدى الصدر، وكانت عناصره تتلقى تدريباتها القتالية في مركز كميت التابع لها. (1) وبعد ثلاث سنوات تقريبا، أصبح حزب الله جزءا من حركة «المقاومة الإسلامية، على غرار حزب الله اللبناني ومقربا منه ومشاركا له في نفس المبادئ والأيديولوجية، من حيث الدفاع عن ولاية الفقيه والإطاعة المطلقة للمرشد الأعلى للثورة آية الله خامنئي، ورفض احتلال القوات الأجنبية للبلاد. ومن ثم أعلن حزب الله العراقي، عام 2007م، عن أن الهدف من وجوده هو محاربة الاحتلال الأمريكي حتى إخراجه من العراق، وإقامة جمهورية إسلامية بالعراق، على غرار نظيرتها بإيران.

وقد انضوت تحت لواء هذا الحزب خمس كتائب شيعية أخرى، تشكلت عقب الاحتلال الأمريكي، هي: جيش المختار، ولواء أبي الفضل العباس، وكتائب كربلاء، وكتائب السجاد، وكتائب زيد بن علي، التي أدرجتها واشنطن على القائمة السوداء للإرهاب (2009م) بعد أن نفذت عمليات ضد قواتها. كما انخرط الحزب في قتال تنظيم داعش، ودخلت قواته سورية للدفاع عن نظام بشار الأسد. وتتمتع عناصره بمستوى من الكفاءة الأمنية والقدرة القتالية

جيش المختار

إحدى الميليشيات التابعة لحزب الله العراق، بزعامة واثق البطاط الذي كان مقيما بإيران منذ عام 1993م، بوصفه عضو بفيلق بدر، وكم كان مجاهرا بالولاء المطلق لآية الله خامنئي، لدرجة أنه أكد مراراً إنه سيقاتل إلى جانب إيران إذا ما دخلت في حرب مع بلده العراق؛ على اعتبار أن خامنئي «معصوم من الخطأ» وشدد أيضا على أن تنظيمه امتداد لحزب الله اللبناني، ويرفع رايات صفراء مثله لكن بشعارات مختلفة. وقد عمل جيش المختار، منذ تأسيسه في يونيو 2010م، على قتل أعضاء حزب البعث وأبناء أهل السنة لأنهم من «النواصب والوهابيين». وقد تبنى، في نوفمبر 2013م، قصفاً صاروخياً استهدف مخافر حدودية سعودية انطلاقاً من صحراء السماوة جنوب غربي العراق، ردا على ما زعمه البطاط بتدخلها في شؤون العراق.

لواء أبو الفضل العباس

كتيبة طائفية مسلحة مكونة من عدة فصائل، أسسها المرجع العراقي قاسم الطائي عام 2013م، لحماية الأضرحة المقدسة لدى الشيعة بسوريا، خاصة ضريح السيدة زينب الكبرى، ولمساعدة قوات النظام السوري والدفاع عن. ويضم مقاتلين عراقيين ولبنانيين، ينتمي أغلبهم إلى جماعة اليوم الموعود بقيادة مقتدى الصدر، وجماعة عصائب أهل الحق بقيادة الشيخ «قيس الخزعلي» المحسوب على جيش المهدي إلى جانب جماعات شيعية أخرى سبق أن قاتلت تنظيم داعش في العراق. وكانت طهران قد أعلنت عن تشكيل هذه الكتيبة في سوريا للعمل تحت قيادة حزب الله اللبناني الموحدة. ويقودها اليوم «حسين أبو عجيب» وهو شيعي عراقي يقيم بسوريا وله علاقات وثيقة بفيلق القدس التابع للحرس الثوري

كتيبة النجباء

إحدى الميليشيات التابعة لحزب الله، مثلها مثل كتيبة أبا الفضل العباس، هي فصيل فرعي من جماعة عصائب أهل الحق، بقيادة أكرم الكعبي نائب مقتدى الصدر. تأسست بهدف الدفاع عن المقدسات الشيعية في سوريا والعراق، وتدين بالولاء التام لمرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي، والجنرال قاسم سليماني قائد فيلق القدس التابع للحرس الثوري. كما ترتبط بعلاقة قوية مع حزب الله اللبناني، خاصة بعد أن تلقى عدد من قادتها تدريباتهم الميدانية، على يد خبراء هذا الحزب. ويشارك مقاتلو النجباء في الصراع الدائر بسوريا، إذ يقاتل لواء عمار بن ياسر في حلب، ولواء الحسن المجتبى في دمشق.

جيش المهدي

الجناح المسلح للتيار الصدري بقيادة مقتدى الصدر، تأسس عام 2003م، لقتال القوات الأميركية بالعراق. ولكنه تلقى منها هزيمة عسكرية، أُجبر بعدها على تسليم أسلحته إلى لجنة عراقية أميركية مشتركة، وتجميد عملياته، وطرد عناصره المتورطة في عمليات التطهير الطائفي بحق أهل السنة. ولكنه ظهر مرة أخرى، عام 2014م، باسم «سرايا السلام» باستعراض عسكري في بغداد، حمل خلاله مقاتلوها الأسلحة الثقيلة والصواريخ التي تلقوها من طهران؛ بزعم حماية المزارات الشيعية.

العراق كان بمثابة جسر لنقل مقاتلي «فيلق القدس» والميليشيات العراقية والأفغانية والباكستانية إلى سوريا

ثم تغير اسمها مرة أخرى إلى «لواء اليوم الموعود» بذات الأهداف السابقة، فضلا عن المشاركة في قتال داعش بسامراء وديالى وآمرلي

عصائب أهل الحق

ميليشيا مسلحة تتبنى نهج حزب الله اللبناني، من حيث الإيمان بولاية الفقيه وتقليد آية الله علي خامنئي، تكونت عام 2004م، بوصفها فصيل تابع لجيش المهدي تحت اسم المجاميع الخاصة، ثم انشقت عنه، بزعامة قيس الخزعلي عام 2007م، وأصبحت تعمل تحت رعاية اللواء قاسم سليماني. وقد اتهمها مقتضى الصدر بـ «ارتكاب جرائم طائفية» ومن ثم طالب «إيران بوقف التمويل عنها». خاصة أنها عُرفت بأنها من أشد الفصائل الشيعية تشددا والتي تلقت عناصرها تدريبات عسكرية خاصة بإيران. وارتكبت، فيما بين عامي 2006 و2007م مجازر بشعة بحق أهل السنة بمدينة بعقوبة مركز ديالى، ومناطق حزام بغداد، وإعدام المئات منهم دون محاكمة والتمثيل بجثثهم، فضلا عن تدمير مساجدهم. وقد انتقلت، عام 2014م، إلى سوريا للقتال لحساب الحرس الثوري.

فيلق بدر

الجناح العسكري لمنظمة «بدر» أحد أشرس الميليشيات الطائفية العراقية، وأحد أشهر الميليشيات التي ترتبط بعلاقات وثيقة مع الحرس الثوري الإيراني. ويقوده حالياً هادي العامري، صديق قاسم سليماني، وعضو البرلمان السابق ووزير النقل في الحكومة العراقية، والشخصية الرئيسية في الحشد الشعبي العراقي ضد داعش. تكون فيلق بدر من مجموعة من السجناء واللاجئين العراقيين في إيران، عام 1981م، بواسطة المجلس الأعلى الإسلامي العراقي، الذي كان يسمى في ذلك الوقت «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية» بزعامة «محمد باقر الحكيم» وشارك في شن هجمات عسكرية من الأراضي الإيرانية ضد نظام الجيش العراقي. كما تولى معظم مقاتليه، بعد سقوط نظام صدام حسين، مناصب قيادية بالأجهزة الأمنية وبوزارة الدفاع وجهاز الاستخبارات، وكان ذلك يمثل فرصة لأن يقوم فيلق بدر بقتل آلاف السُنة من قادة الجيش العراقي السابق، ولا سيما ضباط القوات الجوية والطيارين، وكذلك عدد كبير من أعضاء حزب البعث

فيلق حُماة الحرم

هو مسمى لمنتخب قتالي، يضم 15 مجموعة مسلحة من شيعة إيران وأفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ولبنان، كان يقاتل بسوريا والعراق لحساب الحرس الثوري، الذي نجح في تجنيد وتدريب وتوجيه عناصره بقاعدة الإمام الحسين، التي إنشاؤها خصيصا لقيادة وتوجيه العمليات الإيرانية في سوريا والعراق، ثم نقلهم إلى معسكرات حزب الله اللبناني، لتوزيعهم على نقاط الاشتباك في سوريا، تحت إشراف العميد بحري حرس حسين همداني (قتل بسوريا يوم 9 أكتوبر 2015م) ويمكن، استنادا إلى مجمل تصريحات بعض قيادات الحرس، أن نشير إلى وجود أكثر 200 ألف عنصر من عناصر فيلق حماة الحرم بسوريا، منهم 70 ألفا تم تدريبهم بمعسكرات فيلق منطقة «ملاير» التابع للحرس، ويتوزعون على 42 مجموعة و128 كتيبة، إلى جانب 130 ألفًا من عناصر الباسيج. ويتألف فيلق حماة الحرم من فرقتين رئيسيتين تضمان المقاتلين الأفغان والباكستانيين، تحت ما يسمى بـ لواء الفاطميون، ولواء الزينبيون.

لواء الفاطميون

تنظيم طائفي مسلح أسسه أحد أقدم العملاء الأفغان للحرس الثوري يدعى علي رضا توسلي، والمكنى بـ «أبو حميد»؛ عقب تدمير جبهة النصرة ضريح المرجع الشيعي «حجر بن عدي» وتهديده بتكرار هذا العمل مع المزارات الشيعية الأخرى. وقد بدأ تأسيس هذا الفيلق بمناداة بعض المؤسسات الرسمية وغير الرسمية لاستقبال أبناء الجالية الأفغانية المقيمة تحديدا في مدينتي مشهد وقم للقتال بسوريا دفاعا عن أضرحة أهل البيت؛ فتشكل ما يُسمى فاطميون داخل معسكرات الحرس الثوري من الأعضاء السابقين في جيش محمد الأفغاني الذي قاتل القوات السوفيتية في الماضي، ولواء أبو ذر، وانضم إليه الأفغان الذين كانوا يقيمون بسوريا. أما لواء زينبيون، فهو مجموعة مدربة من المقاتلين الباكستانيين الشيعة، الذين تم استقطابهم من المدن الباكستانية ذات الكثافة الشيعية، مثل پاراچنار ولاهور وكراتشي وغيرها من المدن التي سبق أن قامت إيران بضخ استثمارات كبيرة فيها من أجل تشكيل الوعي الجمعي بها وجذب المجنّدين منها، وكذلك من بين المقيمين بإيران، وممن تم استدراجهم عبر جامعة المصطفى الدولية والمجمع العالمي لأهل البيت. وقد تولى الحرس الثوري تدريب هذه العناصر وتسليحها داخل معسكرات التدريب التابعة له بمدينة قم، وبمعرفة حزب الله الباكستاني بإسلام آباد، ومن ثم ضمها للمليشيات المقاتلة بسوريا.

حركة الصابرين نصراً لفلسطين

كونها الحرس الثوري داخل قطاع غزة على غرار حركة أنصار الله باليمن وحزب الله بلبنان. وقد عبر هشام سالم زعيم الحركة عن تماهي أهداف حركته مع مبادئ المذهب الشيعي، عندما شبه ما يحدث بفلسطين بما حدث في كربلاء، وزعم أن تحرير فلسطين يحتاج إلى «حسين» جديد لا يعرف للتضحية حدودا. وتتخذ حركة الصابرين شعاراً قريب الشبه بشعار حزب الله اللبناني والذي يُعد بدوره قريب الشبه بشعار الحرس الثوري الإيراني. وتعتبر هذه الحركة نفسها حركة مقاومة فلسطينية، تهدف إلي طرد المحتل الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية.

حركة أنصار الله الحوثية

هي حركة طائفية يمنية مسلحة، تأسست عام 1992م، بمدينة صعدة باسم «حركة الشباب المؤمن»، وتُعرف باسم «الحوثيين» نسبة إلى مؤسسها حسين بدر الدين الحوثي الذي قتل على يد القوات اليمنية عام 2004م، وقد حاولت هذه الحركة السيطرة على الدولة اليمنية بالكامل عام 2015م، وتدير منذ ذلك الوقت صراعا مسلحا مع المملكة العربية السعودية. وتدل إدارة أنصار الله للاشتباكات مع القوات السعودية، ونوعية الأسلحة التي تستخدمها، والشعارات السياسية التي ترفعها مثل: «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود» على دعم إيران اللامحدود لها.

وجهان لـ «محور» واحد..
السياسي الثوري والطائفي القبيح (4)

■■ يتسم «محور المقاومة» الذي أنشأته إيران في بعض الشرق الأوسط، بمجموعة من الخصائص المهمة، التي أسهمت في تحقيق مكاسب إقليمية عديدة لصالح طهران في المنطقة العربية، وفي الشرق الأوسط بشكل عام، بحيث نجحت إيران في الخلط – ببراعة - بين الوجه السياسي الظاهر «المقاوم» للهيمنة الأمريكية، والوجه الطائفي البغيض، الخفي، لهذا «المحور».

ومن أهم هذه الخصائص:

النهج شبه العسكري: هو نهج عملياتي فعال، أثبت قدرة إيران على إجراء عمليات عسكرية أكبر من المعتاد، وبأقل تكلفة ممكنة، ولا يكون له أثر ملموس يمكن أن يصبح دليلا على تورطها فيها. ولقد مكن هذا النهج إيران من تحقيق فعالية تشغيلية كبيرة بشأن استراتيجياتها لبناء العمق الاستراتيجي لها في المنطقة.

المرونة في الحركة: إذ تتصف فصائل محور المقاومة بالمرونة؛ من حيث قدرتها على تقليل أو زيادة وجودها، حسب مقتضيات الحاجة. الأمر الذي اكتسب محور المقاومة الاستدامة والقدرة على بناء القوة وتعزيز الولاء لصالح إيران لدى الشركاء. وفي هذا الإطار قام فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني بتدريب الفصائل الفاعلة المحلية، وتقديم المشورة لها وإعادة تأهيلها.

القدرة على الانتشار عبر الحدود: إذ تعلمت إيران والميليشيات التابعة لها كيفية تنفيذ ومواصلة العمليات العسكرية في دول أخرى. فقد نفذ حزب الله، على سبيل المثال، مهام استشارية في اليمن لصالح الحوثيين، وفي العراق مع قوات الحشد الشعبي، وأجرى عملية برية طويلة الأمد في سوريا. كما قاد فيلق القدس وحزب الله والميليشيات الشيعية القادمة من العراق وسوريا وأفغانستان وباكستان عمليات عسكرية لصالح النظام السوري.

القدرة على التشغيل البيني: تمتلك إيران حاليًا مجموعة متنوعة من المليشيات ذات المهارات القتالية والخبرات العسكرية في تنفيذ العمليات المشتركة على جبهة واحدة، أو جبهات متعددة في آن واحد. ومن ثم أثبتت، على سبيل المثال، قدرات قتالية فائقة أثناء العمليات القتالية في حلب بسوريا، وفي تكريت بالعراق، وعمليات تطهير الجبال والصحراء الواقعة بغرب وشرق سوريا على التوالي، فضلا عن شن هجمات خارجية على السعودية من داخل اليمن.

إيران.. جملة من المكاسب

حصدت إيران جملة من المكاسب من وراء محور المقاومة، بوصفه التجسيد الحقيقي للعمق الاستراتيجي التي خلقته بمنطقة الشرق الأوسط. وذلك كما نوضحه على النحو التالي:

الأول: أوجدت إيران لنفسها فرصا جيوسياسية على المستوى الإقليمي اتسمت بالمرونة والديناميكية، أسهمت بدورها في تنويع خياراتها السياسية، فضلا عن زيادة قدرتها على المناورة والحصول على تنازلات لتعزيز نفوذها الإقليمي، نظرا لما يلي:

طهران حصدت جملة مكاسب من وراء «محور المقاومة» بوصفه تجسيدا لعمقها الاستراتيجي في الشرق الأوسط

1 - عززت إيران استراتيجيتها الدفاعية؛ للحد الذي تقلصت معه مخاطر شن هجوم عسكري تقليدي مباشر على أراضيها.

2 - زادت من وزنها النسبي بالمنطقة، وعززت قدرتها على التأثير الاستراتيجي، من خلال إدارة المليشيات والتنظيمات الموالية.

3 - أصبحت إيران أقرب إلى توفير طرق برية لتوطيد نفوذها الإقليمي، وتعزيز قدرتها على نقل القوات والأسلحة إلى حلفائها.

4 - رفعت مستوى وعي الأقليات الشيعية بالمنطقة بحقوقها وبات بعضها شريكا أيديولوجيا لها وبعضها الآخر حليفا سياسيا.

5 - حوّلت جماعات «ما دون الدولة» إلى قوة مساندة لاستمرار نفوذها الإقليمي، كما استخدمتها وسيلة للترويج للتشيع.

6 - حولت هيمنتها الأيديولوجية على ركائزها الإقليمية إلى عملية سياسية ومؤثرة، تؤهلها للعب دور وسيط مستقبلي مؤثر في الأزمات الإقليمية الكبرى؛ الأمر الذي يكسبها هيبة سياسية.

7 - طورت مفهوم المقاومة من مجرد محور إلى تحالف إقليمي داعم لمركزها التفاوضي حيال ملفها النووي والصاروخي.

8 - فتحت أسواقا جديدة لمنتجاتها، بما يعزز اقتصادها الوطني، ويزيد من قدرتها على الالتفاف على العقوبات.

الثاني: كونت إيران تحالفا يحقق الأمن الجماعي المتبادل بينها وبين حلفائها، ولديه القدرة على ردع المناوئين لها استنادا إلى القدرة على الحركة العابرة للحدود. وهذا ما يعد أحد أهم مكاسبها. فقد كان من الطبيعي، في ظل ديناميات العلاقة بين إيران ومكونات محور المقاومة من حيث الدور والخطط والمهام، والمكاسب الإقليمية، أن يرتقي مفهوم هذا المحور إلى مرحلة التحالف، من حيث التوازن بين تهديدات الأعداء (إسرائيل والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية) وبين متطلبات الأمن الجماعي والدفاعي المتبادل، ومن حيث الإدراك الكامل للتهديد الخارجي المشترك والوحدة الأيديولوجية، وذلك نظرا للعوامل التالي:

1 - عززت إيران قدراتها على فرض طوق إقليمي طائفي حول ثروات دول الخليج وابتزازها في هذا الإطار.

2 - حولت جماعة أنصار الله باليمن من مجرد جماعة محلية إلى قوة تتحدى السعودية، وتستنزف قواها، وتحطم هيبتها الإقليمية.

3 - جعلت الحشد الشعبي بالعراق رهنا لإرادتها، إلى الحد الذي يمكنها استخدامه في زعزعة استقرار دول الخليج، وقتما تشاء.

4 - جعلت من تحالفها مع سوريا إحدى التحديات الفعالة للدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط.

5 - طورت قوة حزب الله اللبناني ليتحول من مجرد قوة محلية، إلى ركيزة إقليمية من ركائز محور المقاومة.

6 - عززت قدراتها العسكرية، عبر تطوير ديناميكية محور المقاومة من الدفاع إلى الهجوم، للحد الذي يهدد الأمن القومي العربي.

الثالث: طورت إيران دوافعها من مرحلة الدفاع عن حلفائها وشركائها الإقليميين، إلى مرحلة الردع والهجوم على مناوئيها. كما جعلت القوى الفاعلة تتحسب من نشوب حرب إقليمية، أو على أقل تقدير التحسب من الانتقام، حال تعرضها أو تعرض أي من حلفائها الأساسيين لعمل عسكري. نظرا لما يلي:

1 - ضمنت إيران لنفسها، من خلال ارتباط الشركاء والتزامهم الأيديولوجي تجاهها، ركائز عسكرية في كل مناطق المقاومة.

2 - أكسب الصراع حلفائها شرعية سياسية وعسكرية وتفكيرًا إقليميًا جديدًا، خاصة بعد تفوقهم على خصومهم.

3 - أفشلت التحالف الإقليمي المعادي لها بقيادة السعودية، بالتزامن مع تأزم العلاقات القطرية والتركية مع دول الخليج ومصر.

الرابع: خلقت إيران مسار ولاء لدى الأقلية الشيعية بأفغانستان وباكستان وربطتهم بنفوذها ومعاركها بالعراق وسوريا واليمن. بما يعني أنها نجحت في الربط الجيوسياسي بين الأقلية الشيعية الأفغانية «فاطميون» والباكستانية «زينبيون» وبين نفوذها الإقليمي. كما أنه بإمكانها استخدام مقاتلي فاطميون في تعزيز المكون الشيعي داخل الدولة الأفغانية، وتشكيل مستقبلها وفق مصالحها الخاصة. كذلك يمكنها تحويل مقاتلي زينبيون إلى أداة لتنفيذ أهدافها في باكستان، أو للمساومة مع الهند إذا نقلتهم إلى إقليم كشمير.

إن الفهم الدقيق للتحدي الإقليمي الذي فرضته إيران من خلال محور المقاومة، وتطور استراتيجيته من الدفاع إلى الهجوم، يفسر لنا قوة مواقفها الإقليمية والدولية، استنادا إلى مكاسبها العسكرية والأمنية في العراق وسوريا واليمن.

كما يشير أيضا إلى أنها أتمت المرحلة الرئيسية الأولى من بناء العمق الاستراتيجي بمنطقة الشرق الأوسط، وكانت الأكثر عدوانية وتهديدا للاستقرار الإقليمي.

ولعلنا ندرك مدى هذا التحدي، إذا علمنا أن الولاء الأيديولوجي لها بالعراق يستهدف في جوهره تقويض سيادة هذه الدولة العربية، وخلق ثغرات فيه تمهد لها سبل الانقضاض على مفاصله. خاصة أنها لا تزال تعرقل مساعيه نحو تحقيق الاستقرار والتنمية، من خلال بعض المليشيات، التي نجحت في تحويل بعضها إلى قوة قادرة على فرض نفوذها بالدولة العراقية، ودمجت بعضها الآخر بمؤسساته الرسمية. مثل مليشيات الحشد الشعبي التي تهيمن عليها شخصيات موالية للحرس الثوري، وتتلقى أوامرها من قيادتها التنظيمية وليست الحكومية، وكثيرا ما خالفت الأوامر الحكومية بزعم أنها تتعارض ومصالح طهران؛ الأمر أدى إلى تآكل سلطة الدولة العراقية لحساب إيران والقوى الموالية لها.

وبعبارة أخرى، أصبحت إيران تتحكم في العراق، منذ عام 2006م من خلال الحشد الشعبي بما له من ثقل سياسي وعسكري وأمني وإعلامي واقتصادي، وارتباط أهم فصائله بها، وهذا ما يجعل منه جيشاً رديفاً للنظام الإيراني، الذي يمكن أن استخدامه أداة للتدخل في شؤون الدول العربية الأخرى وزعزعة استقرارها. كما أن سيطرة الفصائل المسلحة، مثل سرايا السلام، وكتائب حزب الله، وعصائب أهل الحق، وفيلق بدر على مناطق معينة ببغداد وبعض المحافظات ذات المكون الشيعي، يزيد من فرضية تهديد استقرار العراق، إذا دبت الخلافات بينها. بدليل إن هذه الفصائل سبق وخاضت صدامات مسلحة فيما بينها بجنوبي العراق.

ومن ناحية أخرى، أسهمت إيران، بالتنسيق مع روسيا، في إحباط جميع محاولات الإطاحة بنظام الحكم السوري؛ بوصفه الشريان الجيوستراتيجي الرئيسي لإيران في الشرق الأوسط، وبالتالي بقي الرئيس بشار الأسد في الحكم، واضطرت القوى الفاعلة للاعتراف، ضمنيًا أو رسميًا، بالوضع القائم بدمشق، وهذا ما يعد في حد ذاته انتصاراً لإيران وتحالف محور المقاومة.

أما فيما يخص الحرب الجيوسياسية التي تؤججها إيران باليمن، والتي تؤثر على أمن منطقة الشرق الأوسط، فقد أفشلت إيران محاولات السعودية لإضعاف مليشيات أنصار الله الحوثية والفضائل التابعة لها. واستدرجتها لخوض حرب استنزاف تركت تداعيات سلبية على أوضاعها الداخلية والخارجية، كما دمرت صورتها الذهنية المحافظة أمام الشعب اليمني. كما نجحت في رفع القدرات الحوثية على إدارة المعارك والتعامل مع المواقف القتالية الصعبة والمعقدة، ودفعهم لتطبيق معادلات الردع باستخدام الطائرات المسيرة والصواريخ الباليستية وصواريخ كروز ضد المواقع العسكرية، وضرب منشآت أرامكو في بقيق وخريس بشرق السعودية، واستهدفت مطارات الرياض وجدة والطائف وخميس مشيط وجيزان ونجران وأبها بصواريخ باليستية.

محور المقاومة.. «تحديات البقاء» (5)

العقوبات الأمريكية أفضت إلى أزمة اقتصادية خطيرة.. وقلّصت قدرة إيران على مواصلة دعم الميليشيات التابعة لها

■■ يواجه ما يُسمى «محور المقاومة» الذي كوّنته إيران على مدار العقود الماضية في المنطقة، عددا من «تحديات البقاء» على رأسها العقوبات الأمريكية المفروضة على إيران، والتي أفضت إلى أزمة اقتصادية خطيرة، وقلّصت من قدرة إيران على مواصلة تقديم الدعم المالي واللوجيستي للمليشيات الشيعية التابعة لها.

وندكر من تلك التحديات، التي ربما تؤثر على مستقبل وجود «محور المقاومة» واستمرار تماسكه خلال المرحلة المقبلة، ما يلي:

الأول: ضعف التماسك مع بعض شركاء محور المقاومة:

إذ يعاني محور المقاومة من مسببات تفكك أوصاله وانهياره؛ فمنها ما يتعلق بتباعد المصالح السياسية بين إيران وبعض شركائها بهذا المحور مما أدى مثلا إلى ابتعاد مقتدى الصدر، وابتعاد حركة حماس النسبي عنها. ومنها ما يعود لضعف المنطلقات الأيديولوجية واختلاف المنظور السياسي للحكم بين السيستاني وخامنئي، الأمر الذي من شأنه أن يحدث انقساما بين الميليشيات العراقية. إلى جانب تراجع مستويات التعاون بين طهران وموسكو في سوريا؛ وتيقن طهران من أن الروس غالبًا ما يتخلوا عن حلفائهم بفعل تفاهماتهم مع الولايات المتحدة وحلفائها. ناهيك عن تعرض بعض المصالح الإيرانية للتراجع في سوريا بفعل تحسن علاقات دمشق مع محيطها العربية، في ظل احتاجها لإعادة الإعمار.

الولايات المتحدة تسعى بالتعاون مع حلفائها إلى تبني استراتيجية إقليمية واسعة لاحتواء وإضعاف «محور المقاومة»

الثاني: تعرّض إيران لعقوبات صارمة:

من المعروف أن إيران تتعرض لعقوبات أمريكية وأوربية وأممية مختلفة، أفضت إلى أزمة اقتصادية خطيرة سوف تقلص من قدرتها على مواصلة دعم معظم المليشيات التابعة لها أو دفع مخصصاتها المالية. خاصة أن العقوبات الأمريكية، التي فرضها الرئيس السابق ترامب، عقب انسحاب واشنطن من الاتفاق النووي (8 مايو عام 2018م) قد ألحقت الضرر الأكبر بالاقتصاد الإيراني أكثر من أي إجراء آخر؛ سيما أنها شملت المؤسسات المنوطة بإدارة محور المقاومة، مثل الحرس الثوري الإيراني بوصفه منظمة إرهابية (8 أبريل 2019م) وهيئات الصناعات البحرية والجوية والطيران (15 يناير 2021م) والبنك المركزي الإيراني (20 سبتمبر 2019م) ومؤسسة المستضعفين (18 نوفمبر 2020م) ومؤسسة الإمام الرضا، ولجنة تنفيذ أوامر الإمام (13 يناير 2021م) فضلا عن عدد من الشركات والمؤسسات ذات النشاط المتنوع، بوصفها كيانات داعمة وممولة للإرهاب والتنظيمات الإرهابية في المنطقة.

إلى جانب أن إدراج مجموعة العمل المالي (FATF) إيران ضمن القائمة السوداء، في فبراير 2020، قد قلص أيضا من قدرتها على الارتباط بشبكة البنوك الرئيسية في الصين وروسيا، فضلا عن البنوك الصغيرة، الأمر الذي أدى إلى حرمانها من الحصول على الخدمات البنكية، ورفع تكلفة نقل الدولار من وإلى الاقتصاد الإيراني، وهو ما سوف يساعد إلى جانب العوامل الأخرى إضعاف محور المقاومة.

الثالث: رفض الأطراف المناوئة لنفوذ إيران الإقليمي

يمثل رفض الأطراف المناوئة لاستمرار النفوذ الإيراني على هذا النحو المخل بتوازن القوى في المنطقة، تحديا ملموسا أيضا؛ خاصة أن الولايات المتحدة تقف على رأسها، إذ تسعى بالتعاون مع حلفائها إلى تبني استراتيجية إقليمية واسعة لاحتواء وإضعاف محور المقاومة في كل ركيزة من ركائزه بل وتدمير كل شركائه. ولكن مع حرصها على ضرورة وجود بدائل خشية أن يؤدي تقليص دعم إيران لحلفائها في سوريا والعراق واليمن مثلا، إلى خلق فرص جديدة لظهور داعش أو القاعدة مرة أخرى، أو أن يستغل تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية تراجع الحوثيين في اليمن لتوسيع دائرة نفوذه.

وتعد إسرائيل من أقوى المناوئين للنفوذ الإيراني وتنتهج لنفسها طريقة لتقويض هذا النفوذ باستهداف عمق الأمن القومي الإيراني، من خلال عمليات نوعية لتصفية علماء برنامجها النووي والصاروخي، وتدمير جانب مهم من منشآتها بمفاعل نطنز النووي، ومجمع بارچين العسكري، فضلا عن الهجمات السيبرانية التي عطلت عددا كبيرا من أجهزة الطرد المركزي، والسطو على أخطر وثائق البرنامج النووي والصاروخي. إلى جانب استمرار غاراتها الجوية التي تستهدف عناصر الحرس الثوري والمليشيات التابعة له بضربات عسكرية مؤثرة على الأراضي السورية.

أما دول الخليج العربية، فقد عبرت بقوة عن رفضها أيضا إخلال إيران بالتوازن الإقليمي بطرق مختلفة؛ فقامت بتسليح الجماعات السلفية في العراق وسوريا، وسعت لإنشاء محور سني بمساعدة تركيا لمجابهة محور المقاومة. كما سعت للإطاحة بنظام الأسد ودفع حماس بعيد عن إيران. حتى وقر في ذهن النظام في طهران أن الأمر قد وصل إلى درجة العمل على إنشاء محور سري يقوم على اتفاق غير مكتوب مع الكيان الصهيوني لمواجهة طهران، ومدها بمعلومات استخباراتية تتعلق بتنفيذ عملياتها العسكرية في اليمن.

ولكن التوافق العربي- الإسرائيلي على خطورة الدور الإيراني بالمنطقة، والاتفاق على التصدي له، كان هو الملفت أيضا، والذي جسدته «الاتفاقات الإبراهيمية» التي أبرمت خلال الربع الأخير من 2020م، وتم بموجبها تطبيع علاقات بعض الدولة العربية، وعلى رأسها الإمارات والبحرين، مع إسرائيل. ومنحها صفة التواجد الرسمي على الشاطئ المقابل لإيران بمياه الخليج العربي، فيما يمكن أن يدخل ضمن عملية الإعداد لتطويق النفوذ الإيراني. وفي هذا الإطار قامت الولايات المتحدة بضم إسرائيل إلى قيادة المنطقة الوسطى سينتكوم المسئولة عن الشرق الأوسط وآسيا الوسطي، بتاريخ 15 يناير 2021م، وذلك ضمن الامتداد الطبيعي للاتفاقيات الإبراهيمية، التي شرعت الأبواب لقيام حلف أمني إسرائيلي - عربي مضاد لإيران.

أما فيما يخص تركيا، بوصفها المنافس القوي لإيران، فترى أن تمدد نفوذ إيران الإقليمي يهدد مصالحها وطموحاتها الإقليمية، وخاصة طموحها نحو إنشاء خطوط لنقل النفط والغاز الخليجي إلى أوروبا عبر أراضيها، وهو أمر يمكن أن يضر بالاقتصاد الروسي والإيراني. خاصة أنه يتضمن إنشاء خط اتصال بري مباشر مع دول الخليج عبر الأراضي العراقية، مما يعني توصيل أوروبا بدول الخليج مباشرة. فضلا عن مشروع لمد خطوط أنابيب لنقل المياه من تركيا إلى دول الخليج وإسرائيل، والتي كانت تخطط تركيا أن تمر عبر العراق أو سوريا ثم الأردن، ومنها إلى دول الخليج العربي وإسرائيل. ولكنه لاقى معارضة عراقية وسورية، لأنه يقلل من حصص المياه لهذه الدول من نهري دجلة والفرات.

وأخيرا، تدرك إيران أن روسيا تستهدف تعظيم المردود السياسي والعسكري والاقتصادي لتواجدها بالشرق الأوسط، مع تقليص الفرص قصيرة المدى للجهات الفاعلة المتنافسة. وأن سياستها تسمح بمزيد من حرية العمل إلى الحد الذي يمكنها فيه تضمين الجهات الفاعلة المتنافسة مثل المملكة العربية السعودية وإيران وإسرائيل في سلة دبلوماسية خاصة بها. ومن ثم تمكنت من التعاون عسكريًا مع إيران، وأبرمت اتفاقيات عسكرية مع السعودية، وتبادلت المعلومات الأمنية والاستخباراتية مع إسرائيل

وفي ظل هذه التحديات التي فرضتها القوى الفاعلة الرامية إلى تطويق نفوذ إيران الإقليمي، ودفع المجتمع الإيراني نحو دائرة محاسبة النظام سياسيا بفعل الأزمة الاقتصادية الناجمة عن العقوبات. من المحتمل أن تظل إيران على المدى القريب عرضة للعوامل التالية، حتى تتم تسوية جميع القضايا الخلافية بين إيران المجتمع الدولي والقوى الإقليمية، بما فيها قضية نفوذها الإقليمي:

- استمرار الضغوط عليها، بما يقلص قدرتها على مواصلة تقديم الدعم لمعظم المليشيات التابعة لها، أو دفع مخصصاتها المالية.

- تقويض المليشيات الموالية لإيران، وتكبيدها الخسائر المادية، والنيل من سمعتها بوصفها كيانات إرهابية.

- استمرار تردي سمعة المؤسسات الإيرانية على المستويات كافة، بوصفها موصومة بدعم وتمويل الجماعات الإرهابية بالمنطقة.

- تعميق مخاوفها الأمنية الناجمة عن زيادة وزن لتركيا وإسرائيل النسبي بمنطقة القوقاز، خصما من وزن إيران، وإكساب إسرائيل صفة التواجد الرسمي جنوبا على سواحل الخليج العربي؛ بموجب الاتفاقات الإبراهيمية، التي عززت مخاوفها من قيام ترتيبات أمنية إسرائيلي – خليجي مضادة لها، خاصة بعد ضم إسرائيل إلى قيادة المنطقة الوسطى الأمريكية «سينتكوم».